المجلس العربي
للعلوم الاجتماعية
Arab Council
for the Social Sciences
Conseil Arabe
pour les Sciences Sociales

الكلمة المفتاحيّة
في المؤتمر السادس
للمجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة

ما لا يُكَذَّب وما لا يُصدَّق: الإيديولوجيا وثالوث الاستثناء والمستحيل والفظيع

ياسين الحاج صالح

الكلمة المفتاحيّة في المؤتمر السادس للمجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة*

@ المجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة

حزيران/يونيو 2023

* هذه نسخة أوّليّة من الكلمة المفتاحيّة التي ألقاها (افتراضيًّا) الكاتب والمفكّر السوري ياسين الحاج صالح في الجلسة الافتتاحيّة للمؤتمر السادس للمجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة (بيروت، 25–28 أيار/مايو 2023)، على أن يَنشر المجلس لاحقًا نسخةً مطوَّرة ومحدَّثة من الكلمة في الكتاب المنبثق من المؤتمر السادس.

عن المؤلّف

كاتب سوري ومعتقل سياسي سابق. من مؤسّسي فريق الجمهورية نت وكتّابها الدائمين. يكتب مؤلِّف تسعة كتب عن سورية، والسجن، والإسلام المعاصر، والثقافة كسياسة، والطائفية، وتجارب الفظيع. يعيش منذ سنوات في برلين.

ما لا يُكَذَّب وما لا يُصدَّق: الإيديولوجيا وثالوث الاستثناء والمستحيل والفظيع

ياسين الحاج صالح

اعتُقِل عدنان قصار، الفارس السوري الذي فاز على باسل الأسد في بطولةٍ للفروسية عام 1992، وقضى في السجن 21 عامًا جزاءً له على تفوّقه على "الفارس الذهبي" الذي كان يُعدُّ وقتها لوراثة أبيه في حكم "الجمهورية العربية السورية". وبعد أقلّ من عامَين من اعتقال قصار مات باسل الأسد في حادث سير، فأُعلِن الحداد في سورية لأسبوع، ولعامٍ كان اللاعبون والجمهور في المسابقات الرياضية في سورية يقفون دقيقة صمت على روح "الشهيد العقيد الركن المهندس المظلي باسل حافظ الأسد". وفي ذكرى موت باسل، كانت تجري "حفلة" تعذيب خاصّة لقصار عقابًا على تجرّئه على الفوز على ابن الرئيس[1].

وبعد موت باسل بجيل، فازت ابنة ماهر الأسد بالمركزَين الأول والثاني في مسابقة للفروسية عام 2019، وتراها في صور واقفةً على منصة التتويج، وقد وضعت إحدى قدميها على مصطبة الفائز الأول والقدم الأخرى على مصطبة الفائز الثاني[2].

ويقضي رغيد الططري عامه الثاني والأربعين في السجن في "سورية الأسد"، لأنه رفض المشاركة في قصف مواقع في سورية عام 1980. قد يكون بذلك أقدم معتقل ضمير في العالم كله. كان عمر الططري 27 عامًا وقت اعتقاله يوم 24 تشرين الأول/أكتوبر عام 1981، وهو اليوم في التاسعة والستين. وطوال 14 عامًا بعد اعتقاله لم تعلم عائلته بمصيره ولم يتلقَّ أيّ زيارات[3].

تبدو هذه القصص، وهي "غيض من فيض"، غير قابلة للتصديق. إنها كذلك بالفعل. وقد يُشتبَه بأنها هجاء سياسيّ رخيص من طرف خصوم النظام المقهورين. لكنّ هذه التجاوزات لحدّ التصديق وقعت بالفعل. وهو ما يضع خصوم النظام في أزمة لأنّهم، العاقلون منهم بخاصّة، لا يريدون تصديق أيّ شيء يقال عن خصمهم احترامًا للمعقول ولأنفسهم، لكننا حيال بنية سلطة تتجاوز نسقيًّا القابلية البشرية للتصديق. ولأنها كذلك، لا يجدي

---

[1] القصة معروفة على نطاق واسع في سورية. هنا خطوطها الرئيسية:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%AF%D9%86%D8%A7%D9%86_%D9%82%D8%B5%D8%A7%D8%B1
راجت في سورية وقتها نكتة تقول: ما هو الفرق بين الشهيد والفقيد؟ والجواب: الشهيد هو من يموت بحادث سيارة على طريق المطار، أما الفقيد فهو كل من يقول بعكس ذلك.

[2] https://mubasher.aljazeera.net/news/2021/11/10/%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D8%B3%D8%AE%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D9%81%D9%88%D8%B2-%D8%A7%D8%A8%D9%86%D8%A9-%D9%85%D8%A7%D9%87%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B3%D8%AF

[3] https://www.admsp.org/ragheed

في الاعتراض عليها المعقولون من الناس، مثلما لم يُجدِ أشباهُهم في مواجهة النازية أو الستالينية. على أنّ هذه المناقشة تهتم بالدلالات المعرفية لما لا يُصدّق، وليس بما يحتمل استخلاصه من عِبر سياسية بخصوص هذا الصنف من بنى السلطة.

فموضوع النقاش هنا يتصل بعدم تصديق ما يحدث فعليًّا لأنه لا يصدَّق، مع كونه صادقًا. ويجري التفكير فيه هنا بالتقابل مع عدم تكذيب ما يجدر بنا تكذيبه أو التشكيك فيه. والمفهوم الذي يمثّل عدم تكذيب ما هو مغرض ومشكوك فيه معروف جدًّا: الإيديولوجيا. ولا نملك مفهومًا لما لا يصدَّق وهو صادق، ولا يساعد النحو العربي في صوغ ما لا يصدَّق في كلمة واحدة، خلافًا في هذا الشأن للنحو الإنكليزي حيث يمكن أن نتكلم على الـunbelievable.

أقترح على كلّ حال أن نفكّر بما لا يصدَّق في حقل دلالات الاستثناء، المستحيل، والفظيع (وسأعود إلى هذه النقطة).

العلم كنقد للإيديولوجيا

تاريخ المعرفة في الأزمنة الحديثة هو بقدر كبير تاريخُ دحض الأوهام التي تتملّك العقل البشري، ميلُنا إلى تصديق أشياء كثيرة غير صادقة بأثر السلطة أو الطبقة أو الهوية أو الجندر أو غيرها. منذ تكلّم فرانسيس بيكون في "الأورغانون الجديد" على أوهام العقل، أوهام القبيلة والكهف والسوق والمسرح، أخذت المعرفة تظهر كتبديد للأوهام وجلائها. فكرة التنوير هي تبديد الظلام والعتمة، الضلالات والأكاذيب، الأساطير والخرافات، التعصّب الديني بخاصّةٍ، وليس إحلال العلم محل الجهل. نقيض العلم هو علم سيئ، وليس الجهل أو انعدام العلم.

عملَ كبار بناة الفكر الحديث على كشف الحقيقة عبر نقد الزيف والوهم والإيديولوجيا، وعبر إظهار منطق تحريف الواقع ليبدو على غير حقيقته. مفهوم الإيديولوجيا الماركسي يقول إننا نميل إلى عدم تكذيب ما يجدر بنا تكذيبه أو التشكّك فيه، وإننا نصدّق ما هو أفكار مضلّلة ومغرضة وجزئية ومنحازة. مصدر المعرفة المضلّلة أو الزائفة يتصل ببنى المجتمع الاقتصادية الاجتماعية أساسًا، لا سيّما بالمواقع الطبقية لأصحاب الامتيازات. في "مفهوم الإيديولوجيا" يوسّع عبدالله العروي منابع التضليل الإيديولوجي لتشمل "غِلّ المستضعفين" الذي أبرز نيتشه دوره في صنع الدين، والرغبات اللاواعية التي صاغ فكرتها فرويد وطوّر منهج التحليل النفسي لتسليط الضوء عليها. وأضاف منهج اجتماعيات المعرفة لكارل مانهايم المنظورية لنَسبَنة التصوّر الماركسي للمعرفة ذاته[4]. في جميع الأحوال، تمرّ المعرفة بإظهار الزيف أو التضليل أو الهوى النابع من بنانا الأنثروبولوجيّة أو مصالحنا الطبقية أو ميولنا الجنسية المكبوتة؛ أو باختصار مغالبة ميلنا متعدّد الدوافع إلى تصديق ما ليس صادقًا وما لا

[4] العروي، عبد الله. 1981. **الأدلوجة، مفهوم الإيديولوجيا**. دار التنوير، بيروت.

ينبغي تصديقه، أو ما يتعيّن أخذه بغير قليل من الحذر المعرفي. وضد هذا الاستعداد التسليمي لعدم تكذيب ما يجدر بنا النظر إليه بعين التكذيب، نطوّر في أنفسنا الاستعداد النقدي الخاص بالتشكّك أو عدم التصديق، بأن نمضي إلى ما وراء المظاهر، إلى جوهر الأشياء المحجوب. إذا طابق ظاهر الأشياء حقيقتها انتفى العلم، يقول ماركس في الرأسمال.

بالمقابل، لم يكد يُبذَل جهد يُذكر لتناول عدم تصديقنا لأشياء صادقة، وقعت فعليًّا. يبدو إبطال ما ليس صحيحًا أدعى للاهتمام من الدفاع عن صواب ما يجري تكذيبه وما نميل إلى تكذيبه بينما هو صحيح. هناك مثال شهير: عدم تصديق وجود غرف الغاز من قبل حنة آرنت لستة أشهر على الأقل بعد ورود التقارير بشأنها من فارّين من ألمانيا النازية إلى المملكة المتحدة[5]. قدّرت آرنت أنّ النازيين ليسوا مضطرين عسكريًّا لقتل اليهود بهذه الطريقة. صدّقت فقط بعد تواتر التقارير. هنا حلّ استدلال منطقي بخصوص انتفاء الضرورة العسكرية محلّ معرفة فعلية بالوقائع المعنية. يُحيل هذا الاستدلال إلى تكوين عقلاني لآرنت، يتشكّك في غير المعقول ولو نُسِب إلى أعداء.

مثل ذلك قام به نوام تشومسكي بخصوص أكبر أبكر المجازر الكيميائية في سورية في آب/أغسطس 2013. قال إنه ليس واضحًا لماذا يرتكب النظام المجزرة بينما هو يكسب الحرب[6]. هنا أيضًا حلت النزعة المنطقية بدل معرفة الوقائع المتصلة بالشأن المعني. لكن في هذه الحالة الأخيرة أدّى الهوى الإيديولوجي دوره كذلك، وهو متصل بمركزية أميركية مقلوبة، تحصر الشر بالقوّة الأميركية، بحيث يكون ما لا يمكن نسبته إليها غير صحيح أو غير مهم. ما وراء الظاهر بالنسبة إلى تشومسكي هو البنية الإمبريالية للسياسات الأميركية في العالم كلّه.

ما وقع في سورية خلال سنوات طوال هو بالفعل ممّا لا يقبل التصديق، لا تدعو إليه ضرورة قطعية، ولا يجني الجناة منه مكسبًا خاصًّا لا يتحقق بأساليب أخرى. لكنّه لم يقع فقط، وإنما كان هذا الوقوع الذي يبدو مجانيًّا هو النسق الراجح. القصص فوق تعطي فكرةً أوليّةً عن نسق مترسخ ومديد، يقوم على الانتهاك المنظم والعنف الفائض والسيادة المشخَّصة، هو ما يستحقّ الاستكشاف والتسمية. فما لا يُصدَّق أو ما لا يقبل التصديق ليس أمثلةً تُحصى أو لا تُحصى، بل هو نسقٌ مستمرّ يعوِّل على الأبد (وهذا لا ينبغي أن يؤخذ كدعاية إعلامية، بل بدلالة لاهوتية سياسية وكـ"وعد" فوق تاريخي). نحن "نعلم" بقتل المدنيين في عشرات المجازر، بحرق الجثث، بالاغتصاب في المقارّ الأمنية[7]، بالمقابر الجماعية، ولكن يلزم توثيق مدقّق مثلما جرى لمجزرة التضامن في نيسان/أبريل 2013، وقد انكشفت أسرارها قبل عام ونيف فقط، كي يمكن أن يدخل ذلك ضمن التصديق العام،

---

[5] تُنظر من أجل ذلك، هذه المقابلة المهمة معها:
Hannah Arendt - What remains? Language remains. (w/ English subtitles)

[6] تُنظر هذه المقابلة معه:
Chomsky: Instead of "Illegal" Threat to Syria, U.S. Should Back Chemical Weapons Ban in All Nations

[7] يُنظر فيلم "الصرخة المخنوقة" لمانون لوازو عن اغتصاب المعتقلات (مريم خليف ورفيقاتها)، وعن الاغتصاب بموازاة مجزرة الحولة 2012: فوزية الخلف وأخريات. الفيلم متاح هنا مع ترجمة عربية: https://www.youtube.com/watch?v=ZF1IF68_iks

وقد لا يدخل حتى بعد ذلك[8]. وإلا فهو إمّا مختلَق أو مبالَغ فيه أو استثناء نادر لا يقاس عليه، من صنف ما يميل الناس إلى إلصاقه بأعدائهم.

ووراء عدم التصديق في السياق السوري بحثُ أناس تربوا على مفهوم الإيديولوجيا عن جوهر خفيّ وراء ظواهر واقعنا، الواقع الذي يبدو لهم ظاهريًّا كله، يقع جوهره في مكان آخر: في الإمبريالية الأميركية، في إسرائيل، في النفط والغاز وأنابيبهما إلخ. هنا أيضًا ثمة علاقة قوّة في معرفة الواقع، تجعل واقع بعضهم، نحن، مظهرًا لواقع آخرين، هم الفاعل الحقيقي. تحليل فعل هذا الفاعل هو المعرفة الحقيقية، فيما تحليل أفعال غيره معرفة سطحية وقليلة الأهمية، أو حتى باطلة. وحتى حين يقوم بذلك سوريون، وهو ما يحصل، فإنه يوجّههم بارادايم الإيديولوجيا، للبحث وراء الجثث والدمار عن شيء أكثر حقيقية.

لكنّ الشيء الحقيقي هو هنا، في الأجساد والبيئات الحيّة المدمرة. الشيء الحقيقي هو ما لا يُعدُّ حقيقيًّا، فلا يصدق. هذا جانبٌ من الواقع لم يجرِ تناوله، وحين لم يُعتبَر عارضًا غير مهمّ، فقد اعتُبِر استثناءً. لكنّه ليس كذلك بحال في حداثتنا، حيث هو القاعدة والشيء الحقيقي (حداثة الاستثناء الدائم، واستثنائية ثقافية). هو ما يدعو إلى أن تكون وجهة نظر من تحطّم أجسادهم وبيئات حياتهم، وليس وجهة نظر فوق السياسي والاجتماعي والدولي، هو ما يؤخذ بالاعتبار من وجهة نظر علوم اجتماعية نقدية. الإنسانيات بعامّةٍ تحسم شرعيتها في ثقافتنا عبر الاشتباك مع أوجه اللاإنساني، ومنها بخاصّةٍ هذا الوجه الخاصّ بما يستعصي على التصديق لفرط لاإنسانيّته.

مشكلة تكوين المثقّفين

يصطدم ذلك بتكوين المثقّفين التقليدي لدينا وفي كلّ مكان. فمن جذور عدم تصديق ما هو صادق أنّ من يعتنون بصدق بما يُتداول من معلومات وأخبار هم عمومًا أناس معنيون بالمعرفة، مثقّفون أو مفكّرون أو فلاسفة، يميلون عبر ذلك إلى إسقاط تكوينهم العقلاني على فاعلين اجتماعيين أو سياسيين أو دينيين ليس لهم التكوين ذاته. إنّه وهم الكهف، كهف النفس، بحسب فرنسيس بيكون. لا يؤمن العقلانيون بالمعجزات، ولا بما يتجاوز القدرات البشرية، ولا بما لا يقبل الشرح بلغة الدوافع البشرية المألوفة من طمع وحسد وحبّ للسلطة والظهور. يؤمنون بمبدأ العلة الكافية، السبب الذي نعرف بالتجربة أو بالاستدلال أنّه علّة لما يحدث، وقد نبني على هذا المبدأ أنّ انتفاء

[8] من أجل مجزرة التضامن، يُنظر هذا التحقيق في الغارديان:
Massacre in Tadamon: how two academics hunted down a Syrian war criminal
على الرابط: https://www.theguardian.com/world/2022/apr/27/massacre-in-tadamon-how-two-academics-hunted-down-a-syrian-war-criminal
ومن أجل كامل تقرير الباحثين، أور أونغر وأنصار شحود، يُنظر النص العربي هنا: قرابين التضامن
https://aljumhuriya.net/ar/2022/04/27/%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B6%D8%A7%D9%85%D9%86/

العلّة ينفي الواقعة المعنية، مثلما بدا لحنة آرنت بخصوص غرف الغاز. وهذا خطأ كان يمكن أن يرتكب مثله ابن خلدون، الذي يستدلّ على صحة الأخبار من طبائع العمران.

أقترح أنّ المعرفة كتبديد للأوهام والتخيّلات هي وضع سياقي حاز قيمةً كونيةً: فأساس نشوء المعرفة الناقدة هو انتهاء عالم القرون الوسطى بفضل الإصلاح والحروب الدينية والكشوف الجغرافية والثورات العلمية والصناعية والسياسية؛ القرون 16 و17 و18، التي هي الحقبة التأسيسية للحداثة والعقلانية والمعرفة العلمية. عرّفَت المعرفة الناقدة نفسها بمواجهة قوّة الأوهام، قيام النظام الاجتماعي على أوهام دينية أو غير دينية. وما عزّز من ذلك تعقلُنٌ مطّرِد للسلطة السياسية في الحقبة التأسيسية، وقيام ضرب من تحالف تاريخي ضمني بينها وبين الشرائح المتعلِّمة والمفكّرين الأحرار والفلاسفة، جعلهم أقوى من القائمين على عوالم الوهم والأسطورة، من رجال الإقطاع والكنيسة. المعرفة هنا أقرب إلى نقد الدين الذي جعل منه ماركس أساس كلّ نقد لأنّ الدين نموذج العالم المقلوب الذي عمل الفيلسوف الألماني المنفي على تمثيله في مفهوم الإيديولوجيا. وعلى هذه الخلفية، يبدو تكوُّن المثقفين العقلاني، وليس اللاعقلاني، هو ما يحول بينهم وبين تطوير مفهومٍ لما لا يُصدَّق. لقد نشأ المثقّف في سياق الصراع مع العوالم الخيالية للدين والأسطورة، هو كذلك سياق لتعقلُنِ السلطة وزوال التعذيب وعمليات الإعدام المشهدية (مثلما أظهر فوكو في "المراقبة والعقاب") فانحفر في سجله الوراثي، إذا جاز التعبير، نقدُ هذه التوهمات وتفنيدُها. بطولة المثقّف تتمثل بالقيام بهذا الواجب.

هل لا يزال هذا التكوين للمثقّفين ناجعًا في عالم اليوم؟ نميل إلى الإجابة بالسلب. ومن نعرفهم في مجالنا كأمثلة على نقد الإيديولوجيا أو "مثقفين تنويريين" يبدون مساخر بالأحرى. جذور أزمة المثقّفين، لدينا ولدى غيرنا، تمدّ جذورها هنا. لم يعد النقد يطال السلطة (جيل الأساتذة من المثقّفين السوريين). يبدو معظم المثقّفين من هذا النموذج التقليدي جزءًا من النخبة، طاقتهم النقديّة محدودة، وأثرهم الاجتماعي متراجع، وعتادهم لا ينفع في مواجهة وقائع وعلاقات ما لا يُصدَّق. يلزم نقدٌ جديد، ومثالٌ جديد للمثقف.

ما لا يُصدَّق والعلوم الاجتماعيّة

بعدما عرفت حنة آرنت يقينًا بوجود غرف الغاز، بل واستمرار توريد اليهود بالقطارات من البلدان الأوروبية التي يسيطر عليها النازيون إلى معسكرات الاعتقال التي توفّرت فيها تكنولوجيا القتل هذه، وحتى حين أخذ يتعارض هذا التوريد مع الضرورة العسكرية، برزت حاجة النازيين إلى استخدام القطارات من أجل مجهوداتهم الحربية. أقول حين جرى ذلك كتبت آرنت متشكّكة في صلاحية مفهوم العلوم الاجتماعية بالذات بالنظر إلى أنها مبنيّة على "التوتاليتارية"، النفعية، هذا بينما يبدو أنّ التوتاليتارية تثابر على إيذاء أعدائها حتى حين أخذ ذلك يتعارض مع

مصلحتها بالبقاء[9]. وألفت آرنت كتابًا مهمًّا عن التوتاليتارية تكشف فيه عن منطق شرّ جذريّ بحسب لغتها في تلك الأيام؛ شرٍّ متعمد ومدروس، ينبع من تكوين التوتاليتاريات، حيث البشر فائضون عن الحاجة، وحيث الحقيقي هو شيء آخر غير حياتهم وغير حقهم في أن تكون لهم حقوق. فكأنّما في المقالة وفي الكتاب تستدرك على نفسها، على منزعها العقلاني الضيق، في مواجهة ما أخذ يبدو لها نظامًا جديدًا كليًّا يقوم على "السيطرة الكلية"، التوتاليتارية، "الشكل الوحيد للحكومة الذي لا يمكن التعايش معه"[10].

في هذا الاتجاه، حيث ما يحدث هو نسقيًّا ممّا لا يقبل التصديق، يتعيّن أن نبحث لكي نفهم هذا النسق. ما قد يكون مسلكًا مثمرًا أكثر من التحفّظ على مفهوم العلوم الاجتماعية هو توسيع دائرة المعرفة الاجتماعية لتتجاوز النفعي، وتشمل عناصر "غير عقلانية"، لا ترتد إلى نموذج الهوموإيكونوميكس، أو نسخة محسّنة منه يدخل في حساباتها ما يتصل بالاعتراف والمكانة والشعور بالرضا، أو كذلك ما يتصل بالجماعة ونرجسيتها ومخاوفها، وليس الفرد العقلاني الحاسب وحده. ولعلّ في ما شهدناه من أقاصي التجربة الإنسانية في سورية، وتورّط الدولة والأديان، وما دون الدول والأديان، في الصراع خلال ما ينوف على عقد، ما يدعو إلى الاشتباك مع فلسفة العلوم الاجتماعيّة وتصوّر الإنسان المضمر فيها. وهو مسعًى يتجاوز من كلّ جانب المعارف التقليدية المنتَجة عن سورية والمنطقة في الدراسات الغربية، وبخاصّةٍ المناهج الثلاثة السائدة في دراسات "الشرق الأوسط": الجيوسياسي، والثقافوي، والأنتي إمبريالي الفوقي الذي لا يحتاج إلى معرفة شيء مفصَّل عن بلداننا (الواقع الحقيقي يقيم في مكان آخر: أميركا)[11].

وفي ذلك ما يثير أسئلةً بخصوص ما بعد الكولونيالية التي تغري كثيرين بيننا، ممّا لا مجال للتوسّع فيه هنا. يكفي القول مبدئيًّا إنّ الدولة في بلداننا نزعت في زمن "الحرب ضد الإرهاب" بخاصّةٍ إلى أن تصير وكالةً مسلّحةً في هذه الحرب، أي عمليًّا استمرارًا للكولونيالية بوسائل أخرى، محليّة. الاستثناء الدائم والحكم بالتوجيهات والأوامر وليس بالقوانين، والتصرّف كقوة سيّدة في الداخل وسياسة في الخارج، وسياسة فرِق تسُدْ في التعامل مع المحكومين، والحملات التأديبية، كلّها مناهج استعماريّة، تقوم عليها الدولة "السيّدة" في مجالنا، ما يعني أنّ أول دراسة ما بعد الاستعمار في مجالنا هي دراسة هذه الدولة السيّدة. يحتاج التفكير ما بعد الكولونيالي إلى إمعان النظر في هذا الواقع، كي لا يسهم بتغذيته من حيث يحسب أنه يقاومه. سورية هنا أيضًا مثال ناطق.

---

[9] Arendt, Hannah. “Social Sciences Techniques and the Study of Concentration Camps.” https://www.jstor.org/stable/4464856

[10] Arendt, Hannah. 2017. *The Origins of Totalitarianism*. Penguin books.

[11] من أجل نقد هذه المناهج، تُنظَر مقالتي:
Worldless Syria: Depopulated discourses and denied agency
متاحة هنا: https://www.yassinhs.com/2021/07/10/worldless-syria-depopulated-discourses-and-denied-agency/

ما لا يُصدَّق والسلطة

النظر في الإيديولوجيا ليس أنسب عتاد لمواجهة المستحيل أو غير القابل للتصديق الذي تخلقه سلطات قادرة لا تخاف أحدًا ولا تعرف حدًّا. نقد الإيديولوجيا البرجوازية أو الإقطاعية ليس أنسب عتاد فكري لضحايا ستالين من المثقّفين كي يدينوا ما جرى لهم من تجاوز غير معقول للحدّ الإنساني، وكي يُصدَّقوا من قبل نظرائهم الذين تربوا على نقد التضليل والتمويه الصوفي للواقع. ومثلما يفقد الجامع والمعتقد الإسلامي طاقته الاحتجاجية في ظل حكم إسلامي مثل إيران اليوم، كانت الماركسية فقدت طاقتها النقدية والاحتجاجية في ظل الأنظمة الشيوعية وصارت فكرةً داجنة. هنا المشكلة هي ألّا يُصدِّق الناس ما يرونه بأعينهم لأنّ النظرية أصدق من النظر. لكن هنا يحدث أن يكون الواقع أغرب من الخيال، أو "شي متل الكذب" مثلما يقول تعبير شعبي سوري عمّا وقع فعلًا ولا يكاد يُصدَّق. هذا التعبير أو ما يعادله يتواتر أحيانًا في علاقة مع الأزمات الكبيرة والمنعطفات التاريخية حين يضطرب نظام الواقع والمتوقع من جهة، وتتفجر في نفوسنا ميول وقوى أعصى على الضبط من الأوقات النظامية إذا صحّت العبارة من جهة ثانية.

ويبدو أنّ عدم تصديق ما يقع فعلًا يتواتر حدوثه حين تكون السلطة السياسية أقوى في آن معًا من المفكّرين والمثقّفين والعلماء، ومن مديري الأوهام والتخيّلات الدينية، وكذلك من الطبقات الاجتماعية وممثليها، أي حين تكون قوة تصحير سياسي واجتماعي مستمرّ. ليست قوة الوهم هي أبرز ما يستفزّ الحسّ النقدي في مجالنا السياسي التاريخي، بل السلطة العنيفة المتوحّشة المنتجة لما لا يصدق، للمستحيل المحقّق في شكل استحالة أو انمساخ الأجساد البشرية عبر تجاوز حدودها واستحالة الاجتماع البشري عبر تجاوز حدوده كذلك. السلطة التي تدير الموت[12]، وليس تلك التي تدير الحياة، دولة الاستثناء الدائم التي لا حقوق فيها ولا سياسة. المعجزة التي لا تُصدَّق هي أنّ المستحيل، والكلمة هنا تجمع بين الممتنع والمتحوّل إلى كائن آخر (استحال إلى شيء آخر)، يتحقّق كلّ حين عبر تحطيم الأجساد البشرية. الفظيع هو مستحيل محقَّق[13]. الاستثناء يصير القاعدة المستقرّة، مثلما رأى فالتر بنيامين في أطروحاته عن فلسفة التاريخ[14] (داعيًا في مقابل هذه القاعدة إلى استثناء حقيقي، هو الثورة).

ولعلّه صار واضحًا أنّ ما لا يُصدَّق وهو صادق يتّصل بالسلطة وأفعالها، مثلما يتّصل الموهوم والمزيّف بالبنى الاجتماعية والمعتقدات المكرّسة لها والحاجبة لعمليات اشتغالها. وهو ما يعني أنّ نقد السلطة هو المدخل إلى كلّ

---

[12] Mbembe, Achille. 2019. *Necropolitics*. Translated by Steven Corcoran, Duke University Press.

[13] من أجل المفهوم، يُنظَر كتابي: الفظيع وتمثيله، دار الجديد، بيروت، 2021. الكتاب متاح للعموم هنا:
http://www.dar-al-jadeed.com/uploads/7/0/8/6/70862181/%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8_%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B8%D9%8A%D8%B9_-_%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D9%8A%D9%86_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%A7%D8%AC_%D8%B5%D8%A7%D9%84%D8%AD.pdf

[14] الأطروحات متاحة بالإنكليزية والألمانية هنا:
https://cominsitu.wordpress.com/2019/08/14/on-the-concept-of-history-walter-benjamin-1940/

نقد في مجالنا، بما في ذلك الدين، لأنّ فعل ما لا يُصدَّق، المستحيل، تجاوز حدود الأجساد البشرية والجسم الاجتماعي (عبر تدمير الأحياء وبيئات الحياة والمدن)، هو من أفعال السلطة التي ينزع الدين إلى تعزيزها، أو منافستها ليقيم سلطة تقسر الأجساد، لا لتقوم حياة الأفراد والمجتمع على الإيمان الديني فحسب. الدين، مذاهب الإسلام أساسًا في مجالنا، يطلب السلطة لدعاته، ولا يطلب أن يُترك لحاله، يعمل بوسائله الخاصّة في مجال الهداية والإيمان والروح. وما إن يحوز السلطة حتى يقوم عليها، أي تصير هي الأساس وليس هو. وهذا يفتح بابًا للتساؤل عمّا إذا لم يكن الإسلام من ظواهر السلطة أكثر ممّا هو من ظواهر الاعتقاد. الإسلامية المعاصرة بلا شك ظاهرة سلطة. السلطة هي المعبود في اجتماعنا السياسي الحديث.

كفاعلية للسلطة، ما لا يُصدَّق يتجلى بصورة خاصّة في ما ذُكِر للتوّ من إنتاج الفظيع، التعذيب والقتل والاغتصاب والمجازر وتدمير البيئات الحية، أي تجاوز حدود الجسد والمجتمع، ومن ثمّ الحقيقة عبر ما تثيره تجربة الفظيع، المستحيل المحقَّق، من أزمة في التمثيل، أي في التفكير والمعرفة والمعنى. والقضية التي يمكن سوقها بهذا الخصوص هي أنّ ما لا يُصدَّق في الزمن المعاصر لا يحيل إلى نتاجات المخيلة البشرية التي يتواتر أن يصدّقها الناس، بل بصورة خاصّة إلى الفظاعات التي تمارسها قوى متنوعة، الدول أساسًا، وإلى الأجهزة والمؤسسات والمعارف التي تنظم الفظاعة.

وليست الفظاعات نتاجات الإيديولوجيا والمعتقدات الدينية وغير الدينية. فلا فظائع النازيين نتاج الإيديولوجيا العنصرية النازية، ولا جرائم الستالينية تولّدت عن الماركسية اللينينية، التي كانت حتى خمسينيات القرن العشرين تسمّى الماركسية اللينينية الستالينية، ولا جرائم الأسدية نتاج إيديولوجيا أسدية أيًّا تكن. حين نتكلم على النازية أو الستالينية أو الأسدية نتكلم على سلطة مطلقة، طلب للأمن المطلق أو "الأمن الدائم"، بتعبير ديرك موسز الذي يتطلع إلى إحلال هذا المفهوم محل مفهوم الجينوسايد[15]. الجرائم نتاج هذا التطلّب الخطير إذ إنّ السلطة المطلقة تقتل قتلًا مطلقًا، إن حوّرنا صيغةً للورد أكتون عن العلاقة بين السلطة والفساد. القتل المطلق هو الإبادة، هو الفظيع الذي لا يُصدَّق. نحن هنا حيال نسقٍ مختلف تمامًا عن نسق الإيديولوجيا، تُحرّكه مطالب مختلفة، من بينها السيطرة على التاريخ، الأبد، الألفية. وحيث سوَّغ نفسه بإيديولوجيا، فإنّها إيديولوجيا للمطلق، هي ذاتها تعبير عن إرادة الله أو الوطن أو العرق أو الحضارة أو التاريخ. لكن حتّى نقد هذه الإيديولوجيات، على جدواه المحتملة، ليس المسلك الأنسب لمواجهة نظم الأمن الدائم. تواجَه في ميدانها هي بنزع أمنها، بإلحاق الهزيمة بها.

وقد يكون ما لا يُصدَّق استراتيجيةً واعيةً لأطقم حكم تريد السيطرة على التاريخ، على ما يظهر مثالٌ أوردَته حنة آرنت في "أصول التوتاليتارية" عن جدار "اللاتصديق الحمائي" الذي كان النازيون واعين بأنه يحوط مشروعهم ويحميه. تنقل آرنت عن آرثر روزنبرغ، أحد القادة النازيين، قوله في تقرير سريّ عن مجزرة قُتِل فيها 5000 يهودي عام 1943: "تخيلوا أن تصير مثل هذه الحوادث معلومة للطرف الآخر [الحلفاء في الحرب العالمية

[15] Moses, Dirk. 2021. *The Problem of Genocide, Permanent security and the Language of Transgression*. Cambridge University press.

الثانية] وأن تُستغَلّ من قبله. يُرجَّح جدًّا ألّا يكون لمثل هذه الدعاية أثرٌ لمجرّد أنّ من سيقرؤون عنها من الناس لن يكونوا مستعدّين لتصديقها"[16]. هذا مذهل. فالقيادي النازي يراهن على عقلانية الجمهور لتمرير مشروعه المفرط في لاعقلانيته.

ليس معلومًا إن كان ما يشبه ذلك حاضرًا في ذهن مخططي الإبادة في النظام السوري، لكن ربما يكفي ضمان الإفلات من العقاب مهما ارتكب من جرائم لإنتاج ما لا يُصدَّق وتعميمه.

خلاصة: ما لا يُصدَّق والمعرفة النقديّة

إنتاج المعرفة النقديّة في مجالنا بحاجة إلى نقد نقد الإيديولوجيا أو بيان حدوده، وأخذ علم بواقع ما لا يُصدَّق، نظم الفظيع وجملة الهياكل والممارسات التي يقوم عليها، مثلما يحتاج النضال السياسي إلى أخذ العلم باحتمال كون ما لا يُصدَّق استراتيجية حكم واعية، تترك الناس في ذهول لا يصحون منه. تأثّرًا بالفكر الغربي، ينتظم الفكر العربي المعاصر حول موقع مركزي لمفهوم الإيديولوجيا، أي الانشغال بتكذيب ما لا يُكذَّب، وما يُستحسَن أن يُكذَّب. الفعل النوعي للسلطة في تحطيم الأجساد، في صنع ما لا يُصدَّق، لا يشغل موقعًا مهمًّا في فكرنا المعاصر. وبينما يُحيل نقد الإيديولوجيا إلى "الواقع" كحقيقة مموّهة أو محجوبة أو مشوّهة، فإنّ نقد الفظيع يُحيل إلى الأجساد البشريّة المحطمة كحقيقة محجوبة. وتتّصل بذلك حقيقة أنّ المؤذي العام في الإطار الاجتماعي التاريخي الذي ظهر فيه مفهوم الإيديولوجيا هو الرأسمالية التي تتعامل مع البشر كأجساد منتجة، تعتصر منها أكبر طاقة إنتاجية ممكنة في نطاق علاقات القوى الاجتماعية القائمة، فيما المؤذي العام[17] في سورية والمجال العربي هو الدولة، وهي تُعامل البشر كأجساد مهدِّدة، تعتصر منها طاقتها الخطرة بإيلامها وتحطيمها. العلاقات الاجتماعية هي مَرّة علاقات إنتاج واستغلال، ومَرّة علاقات إرهاب أو ترويع وسيطرة. فإذا كان الجسد المنتهَك هو الحقيقة السياسية الأساسية، فانتهاكه هو كذلك أساس القعود الحضاري والسياسي والأخلاقي لبلداننا، والنظر في أحواله منطلَق أساسي لتفكير ومعرفة نقدية متجدِّدَين. لا يسع العلوم الاجتماعية في مجالنا ألا تكون نقدية، ومقاتلة، تشتبك مع التجارب القصوى الأقل إضاءةً بفعل حضور مرجعيات أقل ملاءمة.

تقدّمت الإشارة إلى حقل دلالات يفيد أن نفكّر في ما لا يُصدَّق ضمنه، وحقل يتضمّن الاستثناء والمستحيل والفظيع. الاستثناء يُحيل إلى القاعدة، إلى السيادة في مفهوم كارل شميت لها والذي رأى في الاستثناء معادلًا

[16] The Origins of Totalitarianism. 1994. Penguin Books. P 572.

[17] تناولتُ تمايز المؤذي العام في هذه المقالة المتاحة هنا:
https://aljumhuriya.net/ar/2022/10/14/%D9%86%D8%B8%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%81%D8%B9%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA-%D9%88%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%81%D9%83%D8%A7%D8%B1/

سياسيًّا–قانونيًّا للمعجزة في الدين. بلداننا كلّها بلدان استثناء، تقوم على حكم مشخصَن، لا يمكن أن يكون دستوريًّا لأنّ من يحكمون يملكون البلدان التي يحكمونها. هذه السيادة تتركنا بلا سياسة، إلا مع القوى الدولية النافذة. المحكومون أتباع، من دون سياسيين. في هذا أيضًا دولُنا استمرارٌ للكولونيالية بوسائل أخرى. سورية المثال الأحدث على هذه السيادة المالكة الوراثية، والأُقسى لأنه الأحدث ومنازع فيه. المستحيل يُحيل إلى الممتنع، ولكن كذلك إلى المسخ، المتحوِّل إلى كائن آخر. الأجساد المحطَّمة هي كائنات مستحيلة، لا تُصدَّق لكنها محققة. والفظيع هو الفقدان العنيف للشكل، سلخ الجلد الذي يحطِّم الكائن، ويجعل المعرفة ممتنعة، ويثير الرعب والارتعاد.

فإذا كان لي أن ألخّص ما تريد هذه المناقشة قوله، فهو ربما توطين الفظيع وعلاقاته في قلب تفكيرنا وثقافتنا بقدر ما هو في قلب واقعنا وسياستنا. تُرى ماذا تقول لنا تغيّرات الموت عن تغيّرات الحياة؟ المقابر الجماعية عن الحياة الاجتماعية؟ المجازر عن السياسة؟ التعذيب عن المواطنة؟ وغيرها كثير.

تفكيرنا السياسي والأخلاقي يحتاج إلى تجديد، زحزحة للمركز نحو تجارب الفظيع والاستثناء والمستحيل، ما لا يُصدَّق. هذا المسلك أقرب إلى تمثيل تجاربنا وزمننا من مفهوم الإيديولوجيا أو أي شيء غيره.